ملخص كتاب: "وهم الشيطان"

الإلحاد ومزاعمه العلمية

تأليف: ديفيد برلنسكي

ترجمة: عبدالله الشهري

من إصدارات مركز دلائل للدراسات ١٤٣٨هـ

جنى المعرفة:

مبادرة هادفة لإثراء المحتوى الرقمي بمنتج ثقافي قيّم، يسهم بزيادة مستوى الوعي والمعرفة عن طريق تقديم الكتب الثقافية من خلال محتوى مرئي ومسموع لكي تكون عناقيد المعرفة بين يديك.



العلموية كنشاط تبشيري.

غالبًا ما يتمّ تعريف العلم من قبل المتحمسين له كأيديولوجيا بصفته العدو الأول للدين، والمنتصر الأخير في حركة التاريخ والإنسانية نحو التقدم والتخلّص من الخرافة والجهل.

وعادة ما يعرّف الملاحدة الجدد العلم كعقيدة راسخة لا كعملية علمية، وتستخدم ألفاظ مثل "العلم يقول"، و"العلم الطبيعي" بصفتها كيانات مستقلة تعرّف الحقائق ولها سلطة عليها.

وهذه السرديات تبطن في داخلها افتراضين أساسين:

الأول: هناك شيءٌ ما يتحدث باسم العلم.

الثاني: هذا العلم – أو الشيء الذي يتحدث باسمه – يقدّم للعالمين رؤية كونية متماسكة.

وهما في الحقيقة فرضان أيديولوجيان، هذا أولًا، فضلًا عن كونهما خاطئين من الأساس ثانيًا.

فبالنسبة للأول فلا شيء يتحدث باسم العلم فعليًا، ولا يمكن حماية الممارسة العلمية من التدخلات غير العلمية التي تفرضها السياقات الاجتماعية والثقافية التي تحيط بالمجتمع العلمي أو حتى قيود الحس العادي (الشائع).

وبالنسبة للثاني: فلا شيء في العلم يقدم رؤية كونية واحدة، فلدينا أربع نظريات كبرى تفسّر الكون: ميكانيكا نيوتن ، كهرومغناطسية جيمس كلارك ، نسبية أينشتاين ، وميكانيكا الكم.

لكن هذه النظريات كل واحدة فيها تعمل لوحدها في جزيرة منعزلة ورؤية خاصة مستقلة عن الكون، و"تحتوي – على حد تعبير الرياضي البارز: روجر بنروز – على صورة متنافرة للأشياء على نحو مرهق للفضول"

فضلًا عن الأفكار المحدودة التي تقدمها لنا عن نشأة الكون والحياة وعن ما يرتبط بهما من قضايا..

ومن هنا نتبين أن "التقريرات الواثقة التي يُسِّرُ بها العلماء في غرفهم الخاصة، ويزعمون فيها أنهم قد برهنوا على عدم وجود الله لا علاقة لها بالعلم، فضلًا عن كونها أقل من أن تتعلق بقضية وجود الخالق ذاتها" كما يقول بيرلنسكي.

هذا فضلًا عن فشلها الذريع إذا ما تعلّق الأمر بالأسئلة العظيمة والمؤلمة عن الموت والحياة والمعنى التي – وعلى عكس العلم – توفر التقاليد الدينية رؤية متماسكة حولها.

"العلم الطبيعي لفظٌ استهلكته أمثلته!" –ديفيد بيرلنسكي.

- **الدوجمائية العلموية (النضال في سبيل العلم)**

قبل الآن كان العلماء ينظرون للعلم والدين كمجالين مختلفين، لكنهما في نهاية الأمر رائعين، ما من حالة عداء، أو افتعال لمشكلات لا طائل منها، حتى أولئك الذين آمنوا بالداروينية كتفسير للحياة لم يجدوا تعارضًا بين ذلك وبين إيمانهم الديني، حتى أن آينشتاين قال "العلم بلا دين أعرج، والدين بلا علم أعمى".

لكن مع ظهور الإلحاد المناضل (militant atheism) تغيّرت الأمور، لقد صار الدين هو العدو، وصار هو والعلم طرفي نقيض، أحدهما خاطئ، وطبعًا: قم بتكذيب العلم إن كنت تجرؤ، وأرني شجاعتك في ذلك! فمثلًا كتب فيكتور ستينجر كتابه "الفرضية الفاشلة: كيف أثبت العلم عدم وجود الله"، ورغم أن ستينجر هو من كتب الكتاب، يُراد لنا أن نعتقد أن العلم هو من قام بالبرهنة اللازمة! وذلك لما يتمتع به العلم من سلطة اجتماعية تجعله يحسم كل شيء لصالحه تقريبًا، رغم أنك لو سألت: ماهو العلم؟ ولماذا يجب أن يكون له كلمة في مسألة وجود الله من عدمه؟ فنادرًا ما تسمع جوابًا!

القاسم المشترك الأول بين الجماعة العلمية هو الاعتقاد السائد بأن العلم شيء رائع جدًا، ورغم ذلك فهو مشروع متواضع جدًا بالنسبة لأي دين أو أيديولوجيا –كما يقول ماسيمو بيلوتشي – وذلك نظرًا لما يتمتع به قادة هذه الجماعة من قلة تقدير وحب على عكس القادة الدينيين والأيديولوجيين، رغم اعتقادهم أنهم "نور العلم والمعرفة، وحملة مشاعل الحق والنور في هذا العالم!"

ولعلّ لنا أن نتساءل: لماذا لا يحب الناس مثل هذه اللغة المتغطرسة؟ ، لا أدري لماذا حقًا!

دأب "المجتمع العلمي" خاصة الملحد منه، على التهميش من قدر الناس! – على عكس التقاليد الدينية – ، ومنذ اندلاع الثورة العلمية على يد كابلر وجاليليو، والعلماء في تأكيد مستمر على أن "الكشوف الكونية تخبرنا أن كوكب الأرض لا يعدو ذرة رملية على شاطئ فسيح" –كما يقول الملحد فيكتور ستينجر– ، والمراد من هذا أن بني الإنسان شيء حقير جدًا بالنسبة للكون، وأيضًا بالنسبة للعلم نفسه!

لقد ولّد هذا الهجوم على فكر التقاليد الدينية التي توحي بتميّز الإنسان وسط الكون اتجاهًا عامًا يرى العلم هو السبيل المطلق والوحيد للحقيقة، ويطالبنا جميعًا –كأي أيديولوجيا متعصبة – بأن لا "نتخذ من دونه آلهة أخرى".

"إننا نأخذ بالعلم، على الرغم من السخافة الصريحة لبعض تراكيبه، وعلى الرغم من فشله في الوفاء بالكثير من وعوده فيما يتعلق بالصحة والحياة، وعلى الرغم من تسامح المجتمع العلمي مع قصص مجرّدة لا أساس لها من الصحة" –ريتشارد لوينتون.

- **ليالي الشكّ**: بين أعمى وأعرج.

يجادل كثير من الملحدين أنه ما من شكّ في أن الدين ضدّ العلم، وأن العلم قال كلمته الأخيرة في وجود الله من عدمه، وأن هذا العلم: هو سبيل تقدّم المجتمع، وهو درب الأخلاق القويم، وهو السبيل إلى عالم عقلاني متنور مسالم!

في مؤتمر: "مابعد الإيمان" حاضر الفيزيائي الملحد استيفن واينبرج، وكان مما قاله أن "الدين إهانة للكرامة الإنسانية"، وأنه "بدون الدين سيفعل الأخيار أشياء جيّدة، وسيفعل الأشرار أشياء سيئة، لكن ليفعل الأخيار أشياء سيئة: لا بد من وجود الدين" وتبع هذه العبارة تصفيق حاد!

وهنا حقّ لنا أن نتساءل: من الذي أذاق العالم ويلات الغاز السام؟ والأسلاك الشائكة؟ والمواد شديدة الانفجار؟ وتجارب تحديد النسل الوحشية؟ والمدفعية الثقيلة؟ وآلات القتل الجماعي ومبرراتها؟ والقنابل العنقودية؟ والصواريخ الباليستية العابرة للقارات؟ والأسلحة النووية؟

إن لم تخنّي الذاكرة ، لم تفعل ذلك جماعة دينية متطرفة!

يمتلك القرن العشرين لوحة مدهشة من الإحصائيات الرائعة التي جلبها العلم للعالم! تبدأ بحرب عالمية راح ضحيتها ١٥ مليون إنسان، ولا تنتهي بحرب عالمية ثانية راح ضحيتها ٥٥ مليون إنسان! مرورًا بحروب أهلية أوروبية، وسلاسل استعمار مختلفة خلّفت أيضًا ملايين الضحايا!

يبدو حقًا أن الأشرار كانوا في حاجة ماسّة إلى الدين في هذه الحوادث ليفعلوا الأشياء السيئة!

على مدار القرن، تصرّف كبار الطواغيت مثل هتلر وستالين على أنه ما من قوة فوقهم، إنهم يحكمون

العالم بمنطق العالم، بلا دين ولا إله! ومع ذلك فإن واينبرج مستعد أن يجادل أن الدين إهانة للكرامة الإنسانية! بينما التخلص منه انتصار لها!
بل إن الحزب النازي بشكل خاص، كانت تقوده أفكار "علمية، تقدمية" بالأحرى: نظرية داروين في الانتخاب الطبيعي، والتي تم تفسيرها لصالح العرق الآري وأنه لا بد من أن تقتل الأنواع القوية الأنواع الضعيفة من البشر لصالح التطور الإنساني! إنها أفكار علمية مذهلة! — لكن للأسف لم تخرج من الفاتيكان لو لم تخنّي الذاكرة! –

وهنا يحق لنا أن نتساءل: ما الذي يجعل الناس أخيارًا بالأساس إن لم يكن الدين؟
والإجابة التي رددها التاريخ: لا شيء! بل رددها كبار الملاحدة أنفسهم، فريتشارد دوكنز يقول: "أكون متفائلًا لدرجة السذاجة إن ظننت أن الناس سيكونون أخيارًا وهم بمنأى عن رؤية الله ورقابته!"
ويحق لنا أيضًا أن نتساءل: إن كان الكون كما وصفه العلماء! "كون من العزلة جامد" فماذا بقى لمعانٍ مثل الخير والشر والحسن والقبيح؟ وإن لم يبقَ لها مكان، فليس علينا أن نقول إلا أن محاولة اختراع نظام للأخلاق في كون ليس فيه وجود لنظام فوق طبيعي، متجاوز للطبيعة، هي كمحاولة تعلم ركوب الخيل لكن بلا خيل!

"لو لم يكن الله موجودًا فإن كل شيء مباح" — الأخوة كارامازوف ، فيدور دوستويفسكي.

- **الإيمان بالعلم.**

رغم تمتع المؤسسات العلمية الأمريكية بسلطة أيديولوجية ضخمة، إلا أنها يساورها شك فظيع في انتصارها على الدين (أو على أي شيء آخر بالمناسبة)، وذلك لما يتمتع به الدين من سلطة كبرى وقدرة أداء جبّارة في القضايا الإنسانية الكبرى كقضايا الإيمان والأخلاق — حتى لو حاول أعضاء الأكاديمية الوطنية للعلوم أن يعتقدوا أن الله غير موجود بالفعل — فسيظل هناك الملايين في الخارج من المؤمنين به.
ورغم ذلك، ما زال البعض يحاول أن يوحي لنا أن الأمر محسوم تمامًا، وأن "العلم" يقول أن الله غير موجود — هكذا –.

فإن سلّمنا لهم قولتهم، فهل العلم خلوٌ من القيم والإيمان فعلًا؟

إن العلوم منذ الثورة العلمية الكبرى تتسم بطابع غيبي إيماني ربما هو أعقد كثيرًا من الإيمان بالله، حين يبحث الفيزيائيون فهم يبحثون عن قانون ناظم للكون بأسره، وفي غمار بحثهم يؤمنون أن هناك شيئًا رائعًا جدًا، وسرًا عميقًا جدًا سيكشف عنه هذا البحث في نهاية المطاف. (عبر ريتشارد دوكنز عن هذا الأمر بقوله: "أعتقد أنه في نهاية المطاف سنكتشف أن السر وراء هذا الكون شيء عظيم جدًا بما يجعل كل التصورات اللاهوتية سخيفة وسطحية بالمقارنة!"، وسبحان الله، "ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، وما كنت متخذ المضلّين عضدًا!" -م-)

العلوم دائمًا متطلعة إلى "مستقبل يتم فيه الكشف عن (كل شيء)" ، وتؤمن أن هناك "المزيد من الأمور التي يجب كشفها"، إن لم يكن هذا إيمانًا، فما تراه يكون؟

هذا بالضبط ما عبّر عنه الرياضي ريتشارد توماس حين قال: "بالنسبة لعالم رياضيات: لا يمكن أن تكون هذه الأمور مصادفة، لا بد أن مصدرها سبب أعلى، وذلك السبب هو أصل افتراض أن هذه النظرية الرياضية تصف الطبيعة!" يبدو إذًا أن العلم لا يحتوي فقط على الإيمان، بل يحتاج إليه، إذ أنه وفقًا لتعبير توماس لا يمكن أن تثق أن النظرية الرياضية تصف الطبيعة، ما لم يكن هناك واضع للطبيعة على هذا النحو! (ربما لو سمع ملحد كلام توماس هذا، لقال شيئًا من قبيل: إله الفجوات، وأشياء مماثلة.. -م-)

لا يقتصر التلاعب بالعلم عند هذا الحدّ، فما من شيء أيسر من أن يقال أن مسألة "وجود الله" مسألة مفتقرة إلى "الدليل"، ويقال دائمًا: أرني الدليل الذي من أجله اعتنقت هذه الفكرة، وعندما نتكلم عن الدليل، فإنه يستقر في مخيلة الملاحدة شيء من قبيل أن يهتز شيء ما ليقول : أنا الله، لماذا؟ لأنه ما من شيء يمكن رصده ليقول أن الله هناك إن لم يكن شيئًا محسوسًا.

وحقّ لنا أن نسأل، هل يستلزم الإيمان بالعلم أيضًا أن يهتز شيء ما لأجل أن يقول أنه ثمّة شيء هناك؟ الفيزيائيون قاطبة يؤمنون بالنيترونات، ويعتقدون أن لها كتلة، والسؤال: أين اهتزت تلك الأشياء لتبدي لمحة عن هذا الاعتقاد؟ إن هذا لم يحصل ببساطة!

الذي حصل: أن مجموعة هائلة من الفروض النظرية والتداخلات الحسابية والمعالجات الفيزيائية المختلفة أدت إلى أن هناك بناءً علميًا متماسكًا، أدى بدوره لوصولنا إلى أن شيئًا يدعى النيترون موجود!

لو افترضنا راهبًا من القرن السادس عشر يحدثنا عن شيء اسمه النيترونات: لرجم بالحجارة على أقل تقدير، لأنه ببساطة سيقال له: هات برهانك!

لماذا لم نقل نفس الأمر في وقتنا الحالي؟ لأن النظرية وفروضها تسبق النتائج!

باختصار: لا يمكنك أن تعامل وجود الله بنفس النظرية التي تعامل بها النيترونات!

- **أحاديث الخيال**

لكلمة "المنهج العلمي" سطوة عجيبة، خاصة أنها تتكرر دائمًا وأبدًا في حديث كل أحد، من أول طلبة المدارس الثانوية وحتى العلماء المرموقين، وهو ملاكم جدلي عنيف، ما إن ينزل على الساحة حتى يهابه الجميع، رغم أنه وفي نفس الأمر – وللمفارقة – لا أحد يفهم ما هذا الشيء تمامًا، ولأنه لا أحد يفهمه، فعادة ما يستعمله أعضاء المجتمع العلمي إذا ما هوجموا ليقولوا أن الأمر في نهاية المطاف "سوء فهم من الجماهير الجاهلة للمنهج العلمي الرصين" وإليك الطريقة المثلى لفعل الأشياء بطريقة علمية منهجية:

١- لاحظ جانبًا من جوانب الكون

٢- كوّن فرضية نتيجة لملاحظتك

٣- توقّع بناءً على ذلك شيئًا ما

٤- اختبر تلك التوقعات

٥- عد لفرضيتك الأولى وعدلّها بما يوافق نتائج الاختبارات

أرأيت كيف تسير الأمور؟ طبّق ذلك على أي شيء في حياة البشر وسينجح الأمر، هذا بالضبط هو المنهج العلمي!

"لقد لاحظت لاعبي كرة القدم لفترة طويلة، ووجدت القاسم المشترك: لاعب كرة القدم المحترف، جيد جدًا في الركض بالكرة، هذه الملاحظة بعد مشاهدات مضنية وطويلة، ومراقبة لأمهر لاعبي العالم.."

سنسدل الستار على هذا المشهد العلمي الرائع لنقول: ليس لكرة القدم أي منهج يذكر! ، كذلك الأمر بالنسبة للعلم!

"إن العلم الحديث لا يستبعد الخلق المباشر بواسطة نتائجه، وإنما بواسطة نقطة انطلاقه المنهجية، إن

أنكرنا هذه الحقيقة فلن تكون منهجيتنا أمينة، هذا هو حال الإيمان بالعلم في زماننا والذي نشترك فيه جميعًا" – سي إف فون فايتسكر

- **نجدة المتلعثم.**

ظلت الفيزياء بعد الثورة العلمية تتعامل مع الفلسفة كعدو تقليدي، وأنه يجب أن نتخلص من حكم الفلاسفة عديمة القيمة، بل إن بعض الفلاسفة شاركوا في تأسيس هذه النزعة ضد الفلسفة التقليدية الأرسطية، فأسس كانط للعقلانية، وأسس هيوم للحسيّة التجريبية المحضة، وهكذا ..

وطوال فترة هذا الخصام، كانت الأمور دائمًا تسير في رأس الرجاء الصالح ملتفة على الطريق الأسهل للتعامل مع الحقائق، إذ اعتبرت الفلسفة الكلاسيكية "كلامًا فارغًا" و"فكرًا منبوذًا" داخل الجماعة العلمية، غير أن آخر كشوفات القرن سمحت للفلسفة مرة أخرى للدخول من الباب الكبير، إذ كان العلماء عادة ما يقف أمامهم مسألة نشأة الكون وأزليته وغيرها من القضايا، وهم لا يستطيعون – أي بالتجريب – القول فيها ببنت شفة، إلى أن تفتق علم الكونيات عن نظرية الانفجار الكبير، التي سمحت للاهوت، ومن بعده الفلسفة، أن يقول في الفيزياء قولته – وبشكل مترفع – إذ تبيّن بعد قرون من البحث أن للكون بداية، وهو ما كان واضحًا ولا يحتاج إلى مزيد شرح قبل ذلك بالفعل لو أن العلماء تخلّوا عن غرورهم وعنادهم لبعض الوقت! إذ أنهم بدوا في ذلك كمتلعثم يريد أن يقول شيئًا، ليقول الفلاسفة الأمر ذاته الذي أرادوا قوله، ودون كل هذا العناء.

في نهاية المطاف كان البرهان الكلامي الكوزمولوجي والذي هو أقدم من أقدم تجربة علمية كفيلًا بحسم الموضوع، أي أن العلم حينها لم يزد شيئًا على توضيح ما هو واضح من بداية الأمر!

"في هذه اللحظة يبدو كما لو أن العلم لن يتمكن أبدًا من أن يرفع الستار عن غموض الخلق! فبالنسبة للعالم الذي عاش إيمانه بقوة العقل والمنطق: تنتهي القصة مثل الكابوس، فقد تسلق لتوّه جبل الجهل، وبينما هو على وشك الوصول للقمة وبينما يرفع جسده فوق آخر صخرة، يجد هناك مجموعة من اللاهوتيين الذين كانوا يجلسون هناك منذ قرون" – روبرت جاسترو

- **عالمٌ جنّ جنونه من الأسى.**

لو استبعدنا نظرية الانفجار الكبير فإن الإلحاد عادة ما يملك في جعبته نوعًا من السفسطة، ليس سهلًا أن تدخل القيم اللاهوتية من الباب الكبير لمجرّد أن نظرية أثبتت المشاهدات المتلاحقة أنها أصح من خيال العلماء عن كون أزلي كان هناك دائمًا..

لذا لجأ العديد منهم إلى السؤال عن "ما وراء الانفجار"، السبب الذي جعل كل هذا يحدث، باختصار: سيكون من السهل على لاهوتي أن يعزز تصورّه عن الله وفق هذه المعطيات، لكن للملاحدة رأي آخر، فقد قرروا أن وراء كل هذا: "لاشيء!" يجادل فيكتور ستينجر أن الكون ظهر من "لا شيء" وهذا اللاشيء ليس كما يبدو عندما تسمع الكلمة لأول مرة، بل هو "شيء" فعلًا، لكنه "حقل مليء بالاحتمالات اللامحدودة" فيما يعرف فيزيائيًا باسم "الحقل الكمومي" في نوع من الجدال الأخرق لكي لا يظهر المتدينون وأفكارهم "غير العلمية" كمنتصر في المشهد الأخير، وفي محاولة عداء مع المنطق وإثبات أن الكون ظهر – إذ فجأة – من "لاشيء"، لأنه من يدري كم المخاطر التي ستحلّ على العالم لو استفاد المؤمنون من هذا التصور ليقولوا أن الكون ظهر لأن الله من فعل ذلك – مثلًا!! –

هذه الفرضيات رغم كونها: محابية وغير محايدة وغير مفحوصة ولا مثبتة، وكلها تعتمد على أدوات رياضية نابعة من نفس الفرضية إلا أنها تقدّم تصورًا مريحًا للفيزيائيين الذين لا يحبّون رؤية اللاهوتيين في مشهد المنتصر في النهاية، ولو كلّف الأمر أن تقول كلامًا غير معقول، وأن تطلب من الناس الإيمان به لأنه "غير معقول".

لينتهي الأمر بالفيزيائيين وبالمجتمع العلمي كعالم جنّ جنونه من الأسى.

- **بحثٌ غير نزيه**

لو أنك تصوّرت العلم على أنه بحث نزيه عن الحق، فأنت مخطيء.. ودعني أوضح لك الأمر.

درس العلماء الكون على مدار سنين وسنين، وكانت دائمًا ما ترتد إليهم النتائج بشكل واضح أن هذا الكون يبدو – على نحو لافت – أنه مهيأ تمامًا ليعيش، الثوابت الكونية هي أرقام دقيقة جدًا على نحو أذهل العقول العلمية الجبارة، وإن فكرت فقط في تغيير طفيف في الأرقام، ستكون النتائج كارثية!

هذا ما دفع واحدًا من أشرس الملاحدة، وهو فريد هويل أن يقول أن الكون يبدو أنه "أمرٌ دبّر بليل" غير

أن الأمور تقف دائمًا عند هذا الحدّ، إذ أن هويل نفسه عندما يتمّ سؤاله عن الذي صمم نظامًا بهذه الدقّة والإحكام يقترح أنها (ربّما) تكون مجموعة من الكائنات الفضائية العبقرية، حتى ريتشارد دوكنز يقترح أنها حضارة شديدة التطوّر، تطورّت وفق نظرية التطور – لا تتعجب – وهذه الحضارة قد طوّرت هذا الكون.

المهم في الموضوع أن لا تتفوه بنت شفة عن الله، وإلا فسيتم اعتبار كلامك لا يمت للعلم بصلة، حتى لو كان المقابل أن تفترض خيالات مجرّدة.

يطرح الملاحدة عادة أجوبة عن سؤال التصميم تتسم بكونها مجازفات غير مضبوطة..

يبدأ الأمر بنظرية الأوتار، والتي تقول أن كل هذه القوانين المضبوطة هي صورة في كوننا فقط، لاحتمالات مفتوحة لا نهائية تنتقل بين أبعاد مختلفة، وأن هذا السلوك الذي تسلكه المادة وأشكالها المختلفة يشبه وترًا، يتحرك بشكل متموّج وفي نفس الوقت مستقيم.

صنّف لي سمولن كتابًا لنقد النظرية من ناحية "نظرية" محضة، ولم يجد أن ثمّة "نظرية" من الأساس، سواء كان على مستوى التأسيس الرياضي للأمر، أو حتى على إمكانية التجريب، أو أي شيء، فكيف يمكنك أن تستدل على وجود أشياء من قبيل احتمالات لا نهائية وفائض ضخم من الأبعاد، حتى أنه وصفها بأنها "أبشع شيء رآه على الإطلاق"، ولكن الأمر لم يتوقف عند نظرية الأوتار، فقد ظهرت بعدها أطروحة "الأكوان المتعددة" أو ما يعرف بـ"المشهد"، والذي يعتبر أن كوننا كون واحد ضمن عدد "لا نهائي" – أيضًا – من الأكوان الأخرى، والتي بدورها تظهر فيها صور أخرى للقوانين ليست بتلك الدقّة والإحكام، وبالتالي فلا تخبرني بعد الآن عن إله أو شيء مشابه، أنت لا تدري إن كان هذا إحكامًا أو مجرّد صورة للقانون وفقط! ، "لا حقائق مطلقة" وقلها بصوت رخيم من فضلك!

لكن أطروحة المشهد أو الأكوان المتعددة دائمًا ما تغفل أن تطّرد مع نتائجها، فمن قال شيئًا عن مشهد تصبح فيه كل القوانين الأساسية عبارة عن "احتمال"؟ هل هذا ينطبق على المشهد نفسه؟ أي هل هو نفسه يخضع لمبدأ الاحتمالات المفتوحة اللانهائية؟ لاحظ كل من إيليس ، وكيرشر ، وستوجر في ورقة بعنوان "الأكوان الأم، والكونيات الفيزيائية" أنه لن يمكن وجود شيء اسمه "المشهد" من الأساس، ما لم تكن هناك قوانين موحدة مشتركة بين جميع الأكوان! بل أن هناك "أجزاء من المشهد" مؤهلة لوجود

"حياة" دون غيرها!

المذهل في الأمر أن المشهد أطروحة إيمانية خالصة، فهي أولًا مبنية على افتراض لا يمكن ملاحظته أو إخضاعه للتجربة من الأساس! وثانيًا يتكلم عنها كثير من الفيزيائين كبديل حيّ عن الله! فأي شيء هذا إلا إيمان أعمى؟

ومن العجيب أن رجالًا جمعهم الإيمان ببدائية المعتقدات الدينية نجدهم يتناقشون في أمور اعتيد مناقشتها في أفلام الخيال العلمي.

- **الله: الفرضية الأقدم ، الأكثر منطقية ، والوحيدة!**

ذات مرّة طرح الفيزيائي جول برماك سؤالًا على نيل توروك قائلًا: "ما الذي يجعل الإلكترونات تستمر في اتباع القوانين؟" قاد هذا السؤال إلى دهشة محيرة، وعجز عن الجواب!

قدّم اللاهوتيين القدماء جوابًا بسيطًا وواضحًا، وهو: "الله" محيط بالعالم وقائم بأمره، وهو الذي يجعل الأشياء المادية تسير وفق قوانين!

أينشتاين نفسه فهم الأمر، وقال أن قوانين الطبيعة هي محض مشيئة الله في كونه!

حتى الفيزيائيين الملحدون مثل استيفن واينبرج لم يستطيعوا الهرب من قوة السؤال وسطوته، فافترضوا الأكوان المتعددة والأوتار لتفسير هذا "القهر" الذي تسير به الأشياء المادية وفقًا لقانون طبيعي لا تحيد عنه!

غير أن الفرضيات التي لا تضع الله في الاعتبار يحوطها دائمًا فقر واضح في الأدلة وهشاشة فكرية، فلماذا يتمسك بها العلماء؟ يجيبك ليونارد سوسكاند قائلًا: "لو تبيّن أن المشهد الآن يعوزه الاتساق — ربما لأسباب رياضية، فإني متيّقن أن الفيزيائيين سيدأبون للبحث عن تفسيرات طبيعية للعالم، لكن عليّ أن أعترف أننا سنكون حينها في موقف مربك جدًا، فبدون تفسير للضبط الدقيق في الكون سنكون ملزمين بالرد على أنصار التصميم الذكي، وهنا أود أن أقول أن عقد آمالنا على الوصول لحل رياضي فريد، هو أمر مبني على الإيمان تمامًا كما بني التصميم الذكي على الإيمان!"

في الوقت الذي ظنّ فيه جمعٌ من العلماء أنهم قد نبذوا كل ذلك وراء ظهورهم لينعموا بكون علماني خالٍ

من الإله! ظهر مرة أخرى كاحتمال وارد جدًا! أمر مربك جدًا!!

"ولكن يجب علي أن أعترف أنه حتى عندما يصل الفيزيائيون إلى أبعد ما يمكنهم الوصول إليه حتى لو وصلنا إلى نظرية نهائية شاملة، فإنها لن تشكل صورة مرضية بالكامل عن العالم، لأنه دائما سيظل السؤال "لماذا؟" موجود، لماذا هذه النظرية وليست أي نظرية أخرى؟ إذًا هناك حد ما من الغموض لن يستطيع العلم أن يوضحه أبدًا." — ستيفن واينبرغ

- **حطام علم مهجور وشبه منسي.**

من المألوف أن يجد الإنسان كلامًا عن أدلة "وجود الله" أما الكلام عن "أدلة عدم وجوده" فهو نوع من ابتكار عجيب، رائده هو ريتشارد دوكنز، إذ أنه خرج فجأة قائلًا أنه قد "وجد حجّة مطورّة تقول أن الله غير موجود"، وهذه الحجة تطوير لحجة فريد هويل — الملحد أيضًا — التي انتقد فيها نظرية داروين قائلًا أن تصورّها عن الحياة يشبه أن تقول أن إعصارًا قام بتكوين طائرة بوينج ٧٤٧ بمروره على مكبّ نفايات.

وهنا تفتق ذهن دوكنز عن التالي: بما أن نشأة الكون مستبعدة حسابيًا، فإذًا: وجود منشيء لهذا الكون أبعد حسابيًا بكل تأكيد، وبالتالي: كما يجب أن نستدل على نشأة الكون وسببها، يجب أن نستدل على وجود الله بنفس الطريقة! وإذا علينا أن نعامل الله كفرضية، لا كإجابة حاسمة!

يلجأ الكثير من الملاحدة للغة الاحتمالات لأنها تمنحهم قدرة على المراوغة لا أكثر.. لكن المهم هنا أن الاحتمالات لا يمكن أن نبني عليها استدلالًا منطقيًا متكاملًا، فما هو محتمل سيظل محتملًا، لا يمكن أن تقول أن لديك إجابة حاسمة ما لجأت إلى الاحتمالات. هذا ما يغفل عنه ريتشارد دوكنز وهو يحاول جاهدًا أن يقول أن الله فرضية احتمالية بعيدة. أن الاحتمالات مهما كانت، فهي لا تقود لنتائج يقينية، أي أنك لا تستطيع أن تقول "الله ليس موجودًا" لمجرّد كونه احتمال بعيد!

ثم إنه لا يمكننا الاعتداد بنتيجتين مختلفتين معًا بحجة الاحتمالات، فإن كان الله أوجد الكون فهو ليس احتمالًا بعيدًا، وإن لم يوجده، فما تفسيرك لكونه موجودًا إذًا؟ إنها تشبه أن تقول "الله أوجد كونًا كان سيكون من المستبعد جدًا وجوده بمحض المصادفة والاحتمالات"، تقريبًا شيء يشبه "في البدء خلق الله

السماوات والأرض" لكن بطريقة رياضية!

وهو أمر محبط بحق لحجة تدّعي أنها "ضد وجود الله!"

هذا فضلًا عن أن من حقنا أن نسأل: ماذا عن المشهد والأكوان المتعددة؟ هل تقدم إجابات حاسمة مثلًا؟

ما الذي تسببّ في إيجاد المشهد؟ ولماذا هو موجود من الأساس؟

لو فحصنا الأمر، سنجد أن على اللاهوتي أن يؤمن بإله واحد، وبكون واحد..

أما دوكنز فعليه أن يؤمن بعدد هائل من الأكوان، كل كون يحتوي عدد لا نهائي من الاحتمالات لعدد لا نهائي من القوانين!

أيهما أبعد وأكثر تعقيدًا؟! بما لا يدع مجالًا للسيد دوكنز أن يفتح فمه مرة أخرى عن "احتمال مستبعد"

"نشعر أنه حتى لو وقعت الإجابة على جميع الأسئلة العلمية الممكنة، فستظل معضلات الحياة على ما هي عليه تمامًا!" – فتنغشتاين.

- **ضربٌ فريدٌ من التفاهة.**

من الأساطير التي تروج بشكل رائع، ويعتبر من يرددها مثقفًا عظيمًا وفائق الأناقة أننا والقردة متشابهون لدرجة كبيرة، وأن نظرية التطور تعيش حيّة بيننا، وأن اعتقاد أن البشر مميزون هو نوع من "الغطرسة الكونية" فقد كتب ستيفن جاي جولد: "أنه لو قدر لفضائي يدرس الأرض أن يرى الإنسان والشمبانزي جنبًا إلى جنب، فإنه من الصعب أن يميز الكثير من الفروق التي نعتد بها بيننا وبين الشمبانزي!"، على الرغم من ذلك: فما معنى هذا؟ لو افترضنا أن سمكة قدر لها أن تقارن بين إنسان وبين حوت العنبر، فستجد صعوبة بالغة في التفريق بينهما غير أن كلاهما ضخم، وأحدهما انسيابي بشكل مثير! ، ولهذا السبب لا يجب أن نستشير الأسماك فيما يتعلق بالبنى الحيوية وأسئلة الوجود! أنا أعني: ما الذي يضيفه هذا المثال من حجة فعلًا؟

على العكس، كتب إم سي كنج، وآي سي ويلسون ورقة علمية نشرتها مجلة ساينس العالمية تقول أن الجينوم البشري وجينوم الشامبانزي متشابهان في أغلب الأجزاء بشكل مذهل، غير أنهما لم يقفزا لنفس

الاستنتاج بنفس المجازفة التي خاضها جولد، بل قررا أن فكرة أن الإنسان والشامبانزي متشابهين لمجرد تشابه الجينات فكرة هشّة بعض الشيء، فهما فعلًا كائنان مختلفان، سواء في البنى التشريحية مثل حجم الدماغ وحجم العظام وتصميم الهيكل العظمي في منطقة الحوض والقدم والفك والاختلاف الواضح في حجم الأعضاء، بل إن كل عظمة في جسد الشمبانزي يمكن تمييزها بمجرد النظر عن نظيرتها في جسم الإنسان!، فضلًا عن الفروقات غير البيولوجية في الهيئة وطرق التنقل وطريقة حيازة الطعام ووسائل التواصل!

فضلًا عن تميّز الإنسان الواضح في اللغة والتفكير والإحساس بالمعنى، كتب ملازم شاب عن معركة ستالينغراد أن الكلاب كانت تعبر ضفة النهر هربًا من ألسنة اللهب، بينما فقط بنو البشر هم من كانوا قادرين على تحمل الصمود أمامها!

هذا درس في التواضع لأولئك العلماء الذين يتبنون أفكارًا عن "الغرور الكوني" وأمثاله ويجعلنا نسألهم: "إذا كانت أفكاركم غير مجدية على نحو واضح، فما الفائدة من تبنيها؟"

- **حكايات داروينية خيالية.**

ظهرت أفكار مثل الجين الأناني وعلم الاجتماع البيولوجي، لتتخلى نظرية التطور عن القردة أخيرًا، لتستبدل مكانها "علم النفس التطوري"، أي القول بأن السلوك الإنساني ناجم عن التطور بشكل ما، وصارت هذه الفكرة هي النمط الثقافي الأحدث والأكثر بريقًا، وصارت نظرية التطور بدلًا من أن تحاول تفسير الحياة، فهاهي تفسّر الحروب، وولع البشر بالأكاذيب، والغيرة، والحب، والزواج، والخوف من الثعابين، والاشمئزاز، ولماذا يولع الآباء بأطفالهم؟ وهكذا!

حتى أن آلان ميلر، وساتوشي كانازاواما نشرا مقالًا ينص على ١٠ حقائق عن الجنس البشري يكشفها علم النفس التطوري!، وكانت الخامسة كالتالي: "الرجال يحبّون الشقراوات الفاتنات"، حقًا؟، لقد كانت هذه الحقيقة غير مخبأة بشكل جيد بعض الشيء!، ياله من أمر مدهش!

هذا فضلًا عن روايات جماعات الصيد والأشياء العجيبة التي تقال عن أسلافنا، هذا بالطبع لأنهم ليسوا موجودين حاليًا، رغم ذلك تجد كلامًا من دوكنز يرفض فيه وبشدة "الحتمية الجينية"، والسؤال الآن: الجين ينتخب بواسطة التطور، وبما أننا لسنا تحت حكم الجينات (الحتمية الجينية) فنحن لسنا تحت حكم

التطور، وبالتالي من حقّنا أن نسأل: ما فائدة هذا الشيء المسمّى بعلم النفس التطوري؟!
وهذا يعني أن ما يقال هو مجرد حكايات يصعب أن يكون لها قيمة، أو لنكن واضحين: إنها لا تتمتع بأي قيمة على الإطلاق!

- **وفي كل شيء له آية..**

كثيرًا ما يطالب الملاحدة بشيء من قبيل "معجزة" تنبئهم عن وجود الله!، وإن كانت المعجزة هي حدث يصل الإنسان بالله، فإني أعتقد أن هناك الكثير منها حولنا، كل ما يستلزمه الأمر الرؤية الثاقبة.
استنتج ريتشارد فاينمان قوة النظرية الكمية قائلًا أن دقتها النظرية في قياس المسافة بين نيويورك ولوس أنجلوس ستتفاوت عن المسافة الحقيقة قيد عرض شعرة آدمي!
السؤال: إذا كانت قوانين الطبيعة لا تفسر نفسها بنفسها، فلماذا نتوقع أننا نستحق هبات من هذا النوع من الأساس؟ نحن لا نستطيع تعليل هذه النتائج الغريبة في النهاية!

- **الواضحات واضحات: هذا كل ما في الأمر**

السيّد ستيفن جاي جولد عندما تكلّم عن نظرية التطور لخصّها على النحو التالي: "الكائنات التي تمتعت بتفاضل تناسلي ناجح، سوف تكون الأحظّ في سباق التكيّف مع البيئة"
دعونا نقول: الأشكال ذات التكيّف الأفضل هي الأشكال التي تتمتع بتفاضل تناسلي ناجح!
ماذا لو لم يكن الأمر كذلك؟ لكان لا شيء! هذا بالضبط هو الدور المنطقي!
عبرّت عن هذه المعضلة الدكتورة فيكي فريزن في الساينس دايلي، حيث قالت أن "النظرية لا تفسر التطوّر المستقل للأنواع"
إذ أنه لا يوجد أي براهين مختبرية من أي نوع على أي تحوّل في النوع، أو تدرّج "صارم" كما تصفه النظرية، بل وحتى النتائج غير المختبرية في حديقة منزلك، فذبابة الفاكهة على مدار آلاف السنين، ظلت كما هي ذبابة فاكهة!، ولم تضع دجاجتك بيضًا مربعًا يومًا ما!، ولم يطوّر خنزير الحديقة عجلات مركبّة على رولمان بلي!، هذا ليس قانون الطبيعة بشكل أوضح من أن يتم الجدال فيه!
بل إن البراهين المختبرية تشهد بالعكس!، ففي استطلاع بحثي عام ٢٠٠١م أجراه البيولوجي يويل

كينغسولفر أن عينة مكوّنة من ألف حالة، أظهرت أنه لا توجد أي علاقة بين الصفات البيولوجية المتفوقة جينيًا وبين كفاءة التكاثر أو البقاء!، أي أن الانتخاب الطبيعي ليس شيئًا غير مثبت فحسب، بل هو "غير علمي" تمامًا!

ساندرا بليكسلي أيضًا قامت بإجراء محاكاة حاسوبية للانتخاب الطبيعي، وقالت أنه "وجد يعمل!"، لكن، وآه من لكن! ، "أظهرت الكائنات تغيرات طفيفة على مستوى التعقيد!" كما تقول ساندرا!

ما تكشف عنه هذه التجارب هو مبدأ أعمق بكثير من الانتخاب الطبيعي الذي اقترحه داروين، هذا المبدأ هو: "هناك الكثير من المغفلين على الدوام!"

رغم ذلك! لا يخجل دانييل دانيت أن يقول أن "البيولوجيا المعاصرة برهنت بما لا يدع مجالًا للشك أن الانتخاب الطبيعي لديه قدرة على توليد تصاميم بديعة تأخذ بالألباب!"

من نافلة القول طبعًا أن نقول أنه لا شيء في العلم المادي "مبرهن عليه بما لايدع مجالًا للشك"! ، (يقول غاستون باشلار: إن تاريخ العلم هو تاريخ أخطاء العلم –م–)

لكن دانييل دانيت يقول بكل هذه اللغة الواثقة، لأنه حتى لو كانت نظرية التطوّر لا تقدم الكثير للبيولوجيا، فهي تقدم الكثير للأيديولوجيا!

"وعليه، فكل هذا التعاطي مع الأساس التطوّري للتفضيل/التوجه الجنسي عند البشر يعدّ قصّة مختلقة من بدايتها وحتى نهايتها." – ريتشارد لوينتون

- **الحياة كظاهرة معقدّة**

ما الذي يتكلّم عنه الداروينيون عندما يتكلمون عن "تطوّر الحياة"؟

في العام ٢٠٠٧م، نشر عالم الأحياء والتقنية الحيوية أيوجين كونن ورقة بعنوان: نموذج الانفجار البيولوجي العظيم للتحولات الكبرى في التطوّر"، قال فيها ما ملخصه أن التحولات الكبرى في العالم البيولوجي تظهر دائمًا على نحو مفاجئ، يشمل ذلك أصل الجزيئات المعقدّة مرورًا بالأعظميات والأسماك! ، بل أن الأنواع الكبرى التي تظهر فجأة، تظهر مجهزة بما تحتاجه تمامًا، دون وجود أثر لطفرات تطورية، أو "أشكال وسيطة من نفس النوع"

هذا كان ترِدادًا لفكرة قالها رياضي أقدم قليلًا هو موتو كيمورا، الذي قال أن المعطيات الرياضية أمامه، لا تسمح بحدوث نموذج الانتخاب الطبيعي والطفرات العشوائية.

حين نشر كونن ورقته، نصحه أحد العلماء المتحمسين عبر الإنترنت قائلًا: يجب على كونن توخي الحذر من نشر أخبار سلبية عن نظرية تقع تحت طائل نقد (الخلقويين)، أي أنه يطلب منه بوضوح: إخفاء النتائج "العلمية" السيئة التي لا تدعم نظرية التطوّر، لأنها ستؤدي إلى حالة من "الارتباك العام" عند غير المتخصصين، وحالة من "النقاش والجدل" عند المتخصصين.

من قال شيئًا عن أيديولوجيا أيها السادة؟!

- **كل شيء في الجينات**

يجادل ريتشارد دوكنز على الدوام، أن جيناتنا هي التي "خلقتنا"، وبالرغم من المغالطة العلمية التي يعتمد عليها في التعمية على معنى الجين وتعريفه إذ أن الجين هو عبارة عن مادة كيميوحيوية تتعامل مع البروتينات المختلفة التي يحتاجها الجسم في أماكن مختلفة والتي بدورها تحدد طريقة عمل الخلايا.

فالسؤال الذي سيظهر فورًا: كيف لمجموعة من المواد الحيوية أن تقرر للإنسان كيف يفكّر وكيف يشعر وكيف يتحرّك؟ فضلًا عن كونها "قادرة على الخلق" كما يزعم دوكنز!

هذا فضلًا عن السؤال الذي يجب أن نطرحه أيضًا: من أين ظهرت هذه المركّبات؟

يقول لويس وليزلي أورجيل: "إن الظهور المفاجئ للنوكليوتيدات على سطح الأرض البدائية (يكاد يكون معجزة)!"

إن النظريات التي لدينا تبدأ عملها، ثم تتوقف عند نقطة معينة، هذه النقطة دائمًا ما تكون "كيف نشأت الحياة؟"، وذلك ببساطة لأنه: لا يمكنها الاستمرار! ، هذا الذي عبّر عنه ستيفن واينبرغ بنوع من الحسرة حين قال: "كلما أصبح الكون قابلًا للفهم، كلما بدا فارغًا أكثر"، بالضبط!

- **نزع السحر عن العالم**

لا تتمكن العلوم التجريبية من تحقيق تقدّم إلا بتجريد العالم وإرجاعه لأبسط صوره المادية، وتفريغه من محتواه العاطفي، أيا ما كان ما تقوم به الجسيمات الأولية فإنها لا تشكّل أسرة، ولا تحدّق في بعضها

البعض في سكوت مضن، ولا تستيقظ صباحًا لتفكّر في معنى هذا كله وما الجدوى منه!، لكننا نقوم به بشكل يومي وعفوي!

والسؤال: كيف يمكن لعالم مادي، وبأي خيال ممكن، أن يتحول إلى عالم صاخب مليء بالمعنى؟

الأمر واضح تمامًا، أن العالم الذي تتكلم عنه العلوم المادية، ليس عالمنا اليومي الذي نعيشه، وبالتالي من السخف محاولة إيجاد تفسير لحياتنا التي نعيشها بكل هذا الثراء في مجموعة من العلوم المادية التجريدية.

وإن كان الأمر كذلك، فمن الواضح أننا نحتاج إلى البحث عن الإجابات في مكان آخر!

